Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

النزعة الكوزموبوليتية في الأدب المقارن

(دراسة في المرجعيات و المرتكزات)

Cosmopolitanism in comparative literature

Study in references and principles

أ.لباشرية خديجة LOUBACHRIA KHADIDJA
(جامعة الجلفة) Université of Djelfa
Email.douma.arfaoui@gmail.com
د/ كمال بن عطية Dr.BENATIA KAMAL
(جامعة الجلفة) Université of Djelfa
Email.benataik@gmail.com

تاريخ الاستلام : 2019-02-04 تاريخ القبول : 2019-03-14

ملخص:

يحاول هذا الموضوع أن يبحث في الكوزموبوليتية في الأدب المقارن من خلال تحليل مرجعيات وأصول هذا المصطلح في التصور الغربي القديم والحديث .بداية من أهم المبادئ التي انطلقت منها الفلسفة الرواقية ؛ كمبدأ القانون الطبيعي الذي يحكم سائر الكائنات و العالم ، ومبدأ الحرية و المساواة التي تكون بين أفراد المدينة العالمية.

تقوم النزعة الكوزموبوليتية في الأدب المقارن على المرتكزات التالية: المرتكز الإنساني ،ومرتكز الجمهورية العالمية للأدب ، ومرتكز المقارنة كقيمة إنسانية.

الكلمات المفاتيح :

الكوزموبوليتية ، الأدب المقارن ، النزعة الإنسانية ، النقد ، العالمية ، المحلية ، المرجعيات ، المرتكز

ABSTRACT

This subject tries to examine the cosmopolitanism in comparative literature by analyzing the references and origins of this term in the old and modern Western conception. The beginning of the most important principles from which the philosophy of stoicism was launched was the principle of natural law governing all other beings and the world, the principle of freedom and equality, World City Members.

Cosmopolitanism in comparative literature has the following pillars: the humane, the global literature base, and the basis of comparison as a human value.

Keywords:

Cosmopolitanism, Comparative Literature, Humanism, Criticism, Global, Local, References, principles

توطئة :

تعتبر المواطنة الكونية مصطلحا مهما ضمن الدراسات النقدية المقارنة إذ هي نزعة تهدف إلى إلغاء كل الفوارق و الحدود بين البشر و تكوين دولة عالمية تحفظ حقوق الإنسان وتحرره من النزعات الإقليمية.وهذا ما نادت به المدرسة الأمريكية عند تبنيها لمفهوم " العدمية القومية " .

الكوزموبوليتية مصطلح قديم وممارسة ترجع إلى البدايات الأولى للثقافة الإنسانية فهو مثلا من أهم المبادئ التي انطلقت منها الفلسفة الرواقية قديما والفلسفة الكانطية حديثا من أجل تحقيق المواطنة العالمية ،ولعل استحواذ الأدب المقارن لهذا المصطلح وفق المرتكزات التالية: المرتكز الإنساني ،ومرتكز الجمهورية العالمية للأدب ، ومرتكز المقارنة كقيمة إنسانية.لدليل قاطع على الأهداف العلمية التي يصبو

إليها الدرس المقارن في تقريبه للثقافات بالوقوف على المشترك الإنساني في الممارسة الإبداعية .

تتعاضد معطيات هذه الدراسة في البحث عن أصول مصطلح الكوزموبوليتية وخلفيته المرجعية في التصور الغربي الحديث، والبحث في تأثيرات هذا البعد النقدي واستثماره في الدراسات الأدبية المقارنة في العالم العربي، وهذا ما يدفعنا لمعالجة هذه التفصيلات في الورقة البحثية الآتية على النحو التالي:

1/ضبط المصطلح:

يتركب مصطلح الكوزموبوليتية le cosmopolitisme من جذرين يونانيين هما:كوسموس cosmos أي العالم أو الكون ، وبوليطيس polites أي مواطن ، ومعناهما مواطن الكون أو المواطنية الكونية على حد تعبير الناقد ريمون طحان " فموضوع المواطنة الكونية لصيق بالحياة وبسلوك البشر، وهو يحتوي في ثناياه وتضاعيفه مقاييس ومعايير وقيما، تهم الخاصة و العامة من الناس ،واعتبرها من صلب الواقع ومن صميم الحياة" [1]. فتكون بذلك الكوزموبوليتية حالة تجعل إنسانا ما يتصور نفسه مواطنا عالميا،أو تجعل ثقافة ما تتصور نفسها بوصفها ثقافة عالمية، وبهذا المعنى فالنزعة الكوزموبوليتية تتعارض مع النزعة القومية ، و ترتبط بالوعي بالانتماء إلى الإنسانية بمعناها الواسع ، بدل الانتماء القومي بمعناه الضيق . وأن يكون الإنسان كوزمبوليتيا معناه أن يعتبر نفسه عضوا في المجتمع الإنساني ،وليس مجرد مواطن في دولة ذات حدود جغرافية وثقافية قومية[2].

تجدر الإشارة من خلال ولوج هذا المفهوم أن الإنسان الكوزموبوليتي ، إنسان واع بوجوده وانتماءه إلى مجتمع عالمي انطلاقا من محليته وقوميته ،ونلمس هذا الاتجاه الكوزموبوليتي عند مناقشة قضية عالمية الأدب ، حيث نسجل أعمالا إنسانية خالدة استطاعت أن تلامس الإنسان أيا كان انتماؤه الجغرافي القومي وهذا ما يتداخل مع الدراسات المقارنة التي تبحث في التداخل بين الآداب ،النابع من كون أن الأدب عالمي أو يصبو إلى العالمية ، ولعلنا اليوم نسجل العالمية في كل مناحي حياتنا الاقتصادية والثقافية وحتى الشخصية .

2/النزعة الكوزموبوليتية في الفلسفة الغربية الحديثة:

يعد كانط هو حامل النزعة الإنسانية في عصر التنوير فقد كانت جل اهتماماته بجانب الأخلاق للإنسان ،فمن الأخلاق توصل كانط إلى قانون أخلاقي عالمي لكل الناس ، فالعالمية حسب كانط هي فكرة تنظيمية يجب السعي دائما إلى تحقيقها فهي بمثابة خط مرشد يجعلنا ننظر إلى التاريخ الكوني على أنه يتوج نحو تحقيق نظام عادل على المستوى الداخلي و جمعية تتحد فيها أمم الأرض و شعوبها ،أي إقامة علاقات على المستوى الوطني و الدولي تحكمها قوانين كونية عادلة.

فتصور كانط حول النزعة الإنسانية تصور رائد ينم عن العقلية الجبارة التي يمتلكها هذا المفكر للوجود و للكون و للعلاقات الرابطة التي تحكم أفراده و التي هي بحاجة إلى الإضاءة والتنوير ضمن مشترك واحد يسعى للحفاظ على هذه الروابط فيتشكل بذلك مجتمع كوني.

والمشروع الذي ناد به كانط هو مشروع السلام الدائم حيث تحدث فيه عن مشروع دستور تلتزم به

جميع الأمم ، تجنبا للحروب و محاولة للسير في خطى السلام الدائم ، ومن المواد الأولية التي أشار إليها كانط والتي تبين الشروط السلبية لمعاهدات السلم نذكر:

أولا :إن معاهدة من معاهدات السلام لا تعد معاهدة إذا انطوت نية عاقديها على أمر من شأنه إثارة حرب من جديد.

ثانيا : إن أي دولة صغيرة أو كبيرة لا يجوز أن تملكها دولة أخرى بطريق الميراث أو التبادل أو الشراء أو الهبة .

ثالثا: هي يجب ألا تعقد قروض وطنية من أجل المنازعات الخارجية للدولة .

رابعا: يحظر على أي دولة أن تتدخل في أي دولة أخرى أو في حكومتها .

خامسا:لا يسمح لأي دولة في حرب مع أخرى أن ترتكب أعمال عدائية[3].

وفق هذه الشروط يحاول كانط أن يؤسس لمضامين جديدة غير ما نصت عليه النقاط السابقة من أجل بناء السلام وفق مقاربات متوازنة تحافظ على قيم الإنسانية للمجتمعات المنهزمة ،كما يرى كانط أن إقامة السلام مشكلة أخلاقية لأن تحقيقه الأبدي لا يعد خيارا ماديا فحسب بل شرطا صادرا عن تقديس الواجب الأخلاقي و اعتبار السلام واجب أخلاقي فذلك هو مبدأ السياسي الأخلاقي . ومن خلال هذا ينظر للحرب على أنها وحشية و مدمرة ، ومن الممكن للفرد و المجتمع و الإنسانية عامة أن تمنع الحرب و تتجنب ويلاتها بفضل الإيمان الأخلاقي إيمان العمل بمقتضى الواجب الأخلاقي لأن الحرب شر و اختيار إرادي[4].وقد ربط كانط ضمن هذا السياق فكرة السلام الدائم بمجال الأخلاق و بمبدأ الواجب الأخلاقي .حيث كان مبدأ الواجب عند كانط هو خطابا موجها إلى البشرية في كل زمان ومكان إنه يخاطب المواطن العالمي الملزم بالواجبات الوطنية والقومية ، لذلك تصور كانط المجتمع المثالي بجمهورية من الأحرار[5].

3/ النزعة الكوزموبوليتية في الدراسات الأدبية المقارنة الحديثة:

تعد الأبحاث و الدراسات الألمانية المرتبطة بتطور الأجناس الأدبية في رسم لوحة عامة شاملة، والتي ذكر فيها تواريخ أكثر الآداب العالمية المعروفة، سباقة في بث روح العالمية الكوزموبوليتية، إذ كان غوته من دعاة هذه النزعة حيث طالع أدب الهند و الشرق الأقصى، ودرس الأدبين العربي و الفارسي، من خلال ما ترجمه المستشرقون، ونلمس ذلك في الديوان الذي ألفه وخصه بالعنوان (الشرق و الغرب)، يحاكي فيه عيون الشعر العربي، " وقد أعلن الألماني هرمانهتنر أن الوقت قد حان لكتابة تاريخ الآداب العالمية، ووضع مؤلفا في تاريخ أدب القرن الثامن عشر في انكلترا و فرنسا و ألمانيا، وقد نشر مؤلفه في الفترة الواقعة بين 1856-1876 "[6].

يؤكد بليز ويفلير بورطال أن سنوات 1880-1930 كانت بالنسبة للكثير من الكتاب و النقاد و الملاحظين للحياة الثقافية الفرنسية بمثابة سنوات "كوزموبوليتية "، و لقد كانت الثقافة الفرنسية آنئذ –مثل الآداب الأوربية الأخرى- تخضع لتحول كبير جدا بسبب الانفتاح على الإنتاجات الثقافية الأجنبية . وقد كان هذا الانفتاح معبرا عن حركة عالمية لتوحيد الذهنيات و الأفكار من خلال الرواج الحر للأعمال الأدبية و الفكرية

.

لكن في ما يخص علاقة الأدب المقارن بالنزعة الكوزموبوليتية ، فمن المعلوم أنه ظهر خلال القرن التاسع عشر ،أي في ذلك القرن الذي سماه جاك طيني " قرن القوميات " ، لذلك ارتبط الأدب المقارن منذ بدايته بهاجس قومي تمثل في الرغبة في إعلاء شأن الأدب القومي ، لكن القضية التي واجهها الأدب المقارن منذ تلك الفترة هي : كيف يمكن للمقارني أن يخلق حالة توازن نظري و إنساني بين الخصوصية الأدبية القومية و الانفتاح الكوزموبوليتي على الآداب الأخرى ؟ و قد ظل هذا السؤال حاضرا –بدرجات متفاوتة و بتأويلات مختلفة- في انشغالات المقارنين . لكن لا يمكن إنكار أن البعد الكوزموبوليتي كان حاسما في تحديد الملامح الأولى لما سيسمى لاحقا الأدب المقارن ، و الدليل على ذلك " أن التوجه الكوزموبوليتي الذي ميز أعمال فيلمان ، و أمبير ، و كيني هو الذي يفسر بالضبط النظر إليهم بوصفهم المقارنيين الأدبيين الأوائل ،و ذلك رغم أنهم لم يكونوا يتوفرون آنذاك على منهج مقارني مناسب ، لأن مرتكزات هذا المنهج لم تتحدد إلا عند هوتشسون ماكاولاي بوسنيت في كتابه "الأدب المقارن" 1886.

إن الانفتاح على الأبعاد العالمية و الجغرافية و التاريخية المرتبطة بالواقع الإنساني كان يفرض مواجهوا التباين الكبير الذي لا يتاح للعالم التحكم فيه إلا عبر دراسة مقارنة للسمات الاختلافية ... لقد حتم الانفتاح على الآداب الأخرى اللجوء إلى المقارنة . وإعادة النظر في سلم القيم السابقة ،كما حتم شكلا جديدا من التأمل المنهاجي و الإبستمولوجي [7].

لقد توجه المقارنون نحو الانفتاح على الآداب الأخرى من منطلق أن الانتماء لجمهورية الأدب يتعالى فوق الانتماء القومي الضيق . و يمكن القول إن فكرة " الأدب العالمي "انطوت لدى غوته نفسه على تصور كوزموبوليتي جوهري للأدب ، و ذلك من منطلق أن " الكوزموبوليتية هي الشرط النهائي لجمهورية الأدب " و ورث المقارنون هذا الوعي الكوزموبوليتي الذي تداخل مع النزعة الإنسانية ليفرز أحد السمات النظرية المميزة للخطاب المقارني فـ" روني إيتيامبل " مثلا كان يدافع عن مقارنية كوزموبوليتية ، ولهذا السبب بالذات اعتبره العديد من المقارنيين أحد رموز الأدب المقارن و منظريه الكبار ، و يكفي أن نشير في هذا السياق إلى ما يحظى به روني إيتيامبل من تقدير و إعجاب كبيرين في أوساط المدرسة المقارنية السلافية و لدى المقارنيين الصينيين واليابانيين ، و مقارني أمريكا اللاتينية .

كما لا ينبغي أن ننسى أن ارتباط الأدب المقارن نظريا بتطلعات كوزموبوليتية جاء في سياق التأثر بالنزعة الوضعية الكانطية ، لأن إيمانويل كانط كان يعبر عن توجه كوزموبوليتي قوي كما هو واضح في كتابه الشهير" فكرة تاريخ كوني من وجهة نظر كوزموبوليتية "1784. ومعنى هذا أن الأدب المقارن حين تبنى النزعة الوضعية الكانطية وجد نفسه متأثرا في الآن نفسه بذلك النفس الكوزموبوليتي الذي حرك فلسفة كانط و حدد ملامح نظرته للتاريخ الكوني بوصفه تاريخا يقود الإنسانية نحو حالة من التنظيم السياسي الكوني الذي تحقق فيه القدرات الطبيعية الإنسانية على أكمل وجه تحت مظلة قانون يلم شتات كل الدول و الشعوب .

إن النزعة الكوزموبوليتية توجه الأدب المقارن بشكل حاسم نحو الآخر و المغاير ، و نحو الانتماء الإنساني بمعناه الواسع ، لأنها تعتبر أن ما يميز المجتمعات و الآداب و الثقافات من اختلاف ليس دليلا على تشظ و شرخ ، بل هي تجليات خاصة لما هو مشترك بين

الإنسان . لكن يبدو الكوزموبوليتية التي حركت جانبا وازنا من تطلعات الأدب المقارن تراجعت أمام أطروحة النسبية الثقافية التي غذت الدراسات ما بعد الكونوليانية والأنتربولوجيا الثقافية انطلاقا من ستينيات القرن الماضي .

ولا شك أن النزعة الإنسانية و النزعة الكوزموبوليتية كانتا مؤسستين للخطاب المقارني ، و حاضرتين فيه وفاعلتين في توجهاته سواء على مستوى المؤلفات الشخصية أو الجماعية التي كتبها المقارنون باختلاف انتماءاتهم أو على مستوى التوجهات التي تبنتها " الجمعية العالمية للأدب المقارن " في بعض مؤتمراتها [8].

مرتكزات النزعة الكوزموبوليتية في الأدب المقارن:

1-**المرتكز الإنساني** : النزعة الإنسانية ليست نسقاً فلسفياً جامداً محدوداً، ولا هي بتعاليم مغلقة على نفسها،بل هي حركة فكرية انتعشت تحديدا في أوربا خلال القرن السادس عشر ، و استمدت مناهجها و فلسفتها من دراسة النصوص القديمة الإغريقية و اللاتينية التي تقدِّم المثل الأعلى في السلوك والمعرفة كما ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالدعوة إلى إعادة بناء النُّظم التعليمية والتربوية، ولعل ما يميز النزعة الإنسانية هو التركيز على مكانة الإنسان باعتباره مركز الكون ، و مقياس كل شيء ، ونقطة انطلاقها.

و يمكن القول إن النزعة الإنسانية هي التي مثلت السند الفكري و الفلسفي لمشروع النهضة الأوربية بشكل عام ، وذلك من زاويتين :

أ/ اكتشاف التراث الإغريقي و الروماني ، والعودة إليه و نشر نصوصه التي ظلت مجهولة طيلة القرون الوسطى خاصة نصوص أفلاطون و أرسطو ، وسيسيرون ،و هوميروس ، وغرهم ،فكانت حصيلة ذلك الاكتشاف هي التحمس الشديد لما في التراث القديم من أصالة فلسفية و أدبية و أسلوبية ، و من إعلاء لقيمة الإنسان ، مقابل التصور الديني الذي روجه رجال الدين طيلة القرون الوسطى ، وهو تصور قائم على ازدراء الحياة الدنيوية ، وازدراء الطبيعة الإنسانية الآثمة .

ب/الاقتناع بأن الإنسان قادر على تحصيل العلم و المعرفة ، و توظيفهما من أجل النهوض بأوضاعه الإنسانية وتجاوز مآزقه و عوائق تحرره ، وذلك مقابل التصور الذي طرحه رجال الدين خلال القرون الوسطى ، ومفاده أن الإنسان لا يملك القدرة على الارتقاء و الخلاص إلا بالتعويل على إيمانه الديني ، ومعنى هذا أن النزعة الإنسانية أعادت بناء تصور جديد للإنسان بوصفه كائنا قادرا على التحكم في مصيره ، و قادرا على الاختيار بين الصواب و الخطأ اعتمادا على ما يحصله من معرفة و ما يكتسبه من علم[9].

ويعرف فونون كوشي النزعة الإنسانية بقوله :"يوحي مصطلح النزعة الإنسانية بمجموعة من المزايا المرتبطة بقيمة الوجود الإنساني و كرامته . و يركز الإنساني فكره ، وسلوكه، و تطلعاته على كل ما يمنح الاكتمال للواقع الإنساني ، أي التوسع المتنامي للوعي ، و توقده ، و تبصره ، والمزاوجة بين صوت القلب و صوت الإحساس المعبرين عن العقل ، و المعبرين أيضا عن الانفتاح و الحرية بوصفهما أساس الفعل المسؤول ، و أساس الطاقة الخلاقة التي توصل إلى عالم إنساني حقيقي.إن النزعة الإنسانية –بهذا المعنى- تعبر عن الاقتناع العميق بإمكانية التسامي اعتمادا على الطبيعة الإنسانية نفسها

، و تعبر في الآن نفسه عن جسامة المهمة التي على الإنسان أن يحققها وهي تكثيف الأنشطة الإنسانية السامية و المتحمسة . ومن هذه الزاوية التي تتعلق بضرورة إحداث تحول حاسم تتيح النزعة الإنسانية التطلع إلى ما يمكن للإنسان أن يكون عليه ، وهي بذلك نزعة جديدة بالمقارنة مع النزعة الإنسانية السابقة [10].

2- مرتكز الجمهورية العالمية للأدب:

تشير باسكال كازانوفا أن مجمل النصوص و الأعمال والمناقشات الأدبية و الجمالية هي في تشكيل عام وتناغم وعلاقة ولا يمكن بهذا فك رموز كل عمل إلا اعتبارا من مجمل التشكيل ، ولا يظهر في تماسكه الأخير إلا من خلال علاقة مع العالم الأدبي ، فالأعمال الأدبية لا تظهر في تفردها إلا اعتبارا من مجمل الهيكل الذي سمح بظهورها ، فكل كتاب كتب في العالم و تم الإعلان عنه بوصفه أدبا هو جزء ضئيل من الخليط الضخم للأدب العالمي بأسره .وتضيف الباحثة أن تكوين مجمل (الحيز الأدبي العالمي)[11] هو العنصر الوحيد الجدير بإعطاء معنى و تماسك لشكل النصوص نفسها ، فهذا الحيز ليس بناء معنويا و نظريا ، و لكنه عالم ملموس بالرغم من اختفائه : إنها الأقطار الواسعة للأدب ، إنه هذا الكون الذي يتولد فيه ما يتم الإعلان عنه بوصفه أدبيا وما يتم الحكم عليه بأنه جدير باعتباره أدبا ، إنه المكان الذي تناقش فيه وسائل تشكيل الفن الأدبي و دروبه النوعية. محددة بهذا حدود هذه الجمهورية ، كما ترسم معالمها و مواصفاتها و النظام و القوانين التي تؤسسها في قولها : " و من ثم سنجد أراضي و حدودا أدبية مستقلة عن الحدود السياسية ، عالم سري و مع ذلك يمكن أن يدركه الجميع و لا سيما الأكثر عوزا ، أقطار يعد فيها الأدب بمثابة القيمة الوحيدة و المورد الوحيد ، عالم مركزي شكل عاصمته الخاصة و ريفه و حدوده ، و تحولت فيه اللغات إلى أدوات سلطة ، و في هذه الأماكن يصارع كل فرد ليتم إقراره ككاتب ، ووضعت قوانين نوعية ، فتحرر بذلك الأدب – على الأقل في المناطق الأكثر استقلالا من التعسف السياسي و القومي – و قامت الصراعات بين اللغات المتنافسة ، و أخذت الثورات دائما طابعا أدبيا و سياسيا في الوقت ذاته، ولا يمكن فك رموز هذا التاريخ إلا عن طريق تحديد موقع حاضر نوعي، خط غرينتش الأدبي"[12] .مؤكدة على أن موضوع تحليل الجمهورية العالمية للآداب لا يتمثل في وصف مجمل العالم الأدبي أو التطلع إلى حصر شامل للأدب العالمي فقط، فالأمر يتجاوز ذلك بكثير حيث يتعلق بتغيير زاوية النظر و وصف العالم الأدبي اعتبارا من مرصد معين؛ لإتاحة الفرصة لأنفسنا لتغيير رؤية النقد العادية، ولوصف عالم جهله الكتاب أنفسهم دوما،"وإظهار أن القوانين التي تحكم هذه الجمهورية الغريبة و الضخمة من منافسة، وعدم تساو، وصراعات نوعية تسهم بطريقة مبتكرة و جديدة في توضيح الأعمال التي لاقت قدرا من التعليق، ولا سيما أعمال بعض أكبر الثوار الأدبيين في هذا العصر، مثل: جويس، وبكيت، وكافكا، وهنري بيشو، ووودانيال كيش، ووليام فوكنر،وغيرهم"[13].

تستند الباحثة في وصف مجمل الأعمال الأدبية إلى قناعة فرنان برودويل للتاريخ الإقتصادي للعالم و التي مفادها ضرورة التفكير بطريقة مقارنة ، على المستوى العالمي، وهي الطريقة السليمة و الوحيدة في تقديم و

شرح شمولية الظواهر و اعتمادها على بعضها البعض، مع احترام إشاراته التحذيرية و المتواضعة "ومع ذلك لا يتعين علينا إغفال أنه بغية تعليل تعقيد هذه الضخامة، كان ينبغي التخلي عن كل العادات المرتبطة بالتخصصات التاريخية و اللغوية و الثقافية، وكل التقسيمات بين مختلف العلوم، التي تبرر جزئيا نظرتنا المقسمة للعالم، لأن هذا الخرق وحده يسمح بالتفكير خارج الأطر المفروضة و تصور الحيز الأدبي بوصفه واقعا كليا"[14].

لكن الباحث في تاريخ التطور الثقافي للشعوب – والأدب مكون ثقافي – يصطدم بأن مسألة العالمية وشمولية الظواهر قد لا تحقق – وإن تحققت جزئيا – في القضايا المتعلقة بالثقافة ، فالخصوصية والمحلية و القومية كائنات تاريخية ورمزية وهوياتية متجذرة في الإنسان ،والحديث عن عالميتها هو حديث تصاحبه الهواجس والمحاذير التي طرحت في قضية الذات والموضوع حين تناول النقاد والفلاسفة مسألة الموضوعية بوصفها إلتزاما في المعرفة .

وقد كان الكاتب فاليري لاربو أول من نادى بمشروع عالمي متطلعا إلى قيام دولة فكرية وإلى نشأة نقد أدبي دولي " وكان الأمر يتعلق بالنسبة له بالانفصال عن العادات القومية التي تخلق وهم الوحدانية و النوعية و التعددية، وبصفة خاصة بالقضاء على الحدود التي تفرضها القوميات الأدبية ... وأعلن هنري جيمس أن فائدة مثل هذا المشروع تتمثل في إدراك مبتكر و بديهي لمعنى النصوص"[15].

ويقع فاليري لاربو من خلال دعوته إلى نقد عالمي دولي على حد تعبيره ،في إشكالية أخرى متعلقة بالطبيعة الإبيستمولوجية للنقد كحقل معرفي ،وفق السؤال الإشكالي هل النقد الأدبي علم أم فن ،وهنا وقع الإضطراب في مدى اختبار صلاحية القوانين الأدبية على مر التاريخ ، فمثلا هل يمكن للنظريات الأدبية المنتجة الصمود أمام المتغيرات العلمية والنصية ،إذ نلحظ تطورا مستمرا على مستوى الخصائص الإجناسية من خلال تمايزها وتداخلها،والتغيرات الموضوعاتية والتحول في الأدوات الإجرائية النقدية .ولعل ما قدمه جاك دريدا في نظريته التفكيكية لدليل قاطع على انتفاء كونية وعالمية النقد إذ قدم نموذج يهدم فيه كل اليقينيات والأسيجة الثابتة حتى في مجال النقد والمعارف .

3- مرتكز المقارنة كقيمة إنسانية :

لقد ارتبط وعي" المقارنة" بالقرن التاسع عشر ،رغم تأصيل ممارساتها في أقدم النماذج الأدبية و مظاهر الفكر الإنساني ، لذلك لم يكن الدرس المقارن ليشذ عن النزعة التثويرية و التطورية لباقي العلوم الإنسانية المحضة لهذا القرن.

ومجال المقارنة في الأدب المقارن لدى المدرسة الفرنسية كان مجالا محصورا و مقيدا ، لأنه ربط إجرائيا و منهجيا بالبحث عن التأثيرات، مستضمرا المقارنة لكنه يتجاوزها، و يتصرف فيها بالطريقة التي تخدم غايته و هي غاية قومية في نهاية المطاف متعلقة بإبراز النفوذ الرمزي لفرنسا، وحضورها في الآخر حضور تأثر أكثر مما هو حضور تأثر، "ولهذا السبب بالذات حصل الوعي لدى المقارنيين الفرنسيين بضرورة إحداث مسافة كافية بين الأدب المقارن و المقارنة، لأنهم انتهوا إلى أن توظيف المقارنة من أجل رصد مظاهر التأثر و التأثير يضع التصور المقارني الفرنسي نفسه في موضع المساءلة و الاتهام، وفي هذا السياق يمكن فهم موقف جان ماري

كاري و روني ايتيامبل الذين رفضا اختزال الأدب المقارن في المقارنة لكن يبدو أن هناك مقاومة حقيقية لهذه المواقف ... أما في فرنسا فنلمس هذه المقاومة عند كلود بيشوا و أندري ميشيل روسو الذين يعبران بدورهما عن موقف متحمس للمقارنة بوصفها توجها أساسيا في الأدب المقارن "[16]،

لعل أحد المرتكزات النظرية الكبرى في الخطاب المقارني هو المقارنة التي يتحدث عنها دانييل هنري باجو قائلا :" المقارنة ليست فعلا مقتصرا على المقارنة الأدبية أو خاصا بها ، و يمكننا تعريفها بعبارات منطقية كفعل لتفكير فرضي –استنباطي يصدر عن استقراء ثم استنباط" [17].

لكن إذا كانت المقارنة في كافة الحقول المعرفية لا تمثل أداة نظرية مؤسسة ، بل تستعمل اتفاقا أو عرضا بحسب الحاجة إليها ، فإنها ترقى في الأدب المقارن إلى مستوى الغاية والوظيفة ، وهي بالتالي أحد مؤسسات الخطاب المقارني ، و أحد مرتكزاته الكبرى . " ومن الجدير بالذكر أن هناك تاريخا سجاليا طويلا حول علاقة الأدب المقارن بالمقارنة ، وهناك مواقف متباينة بعضها يربط ربطا مباشرا بينهما ، و بعضها الآخر يبحث عن تأويل ممكن لتجنب الوقوع في الخلط النظري و المنهجي بين طريقة اشتغال المقارنة بوصفها وسيلة استقصاء لمظاهر الاختلاف و الائتلاف و بين الأدب المقارن بوصفه حقلا يستضمر المقارنة و يتجاوزها في الآن نفسه .

و يبدو أن الرأي السائد في الحقل المقارني عموما هو أن المقارنة ليست هي الأدب المقارن ، ونجد هذا الرأي عند روني إيتيامبل ، و روني ويليك ، و أدريانو مارينو ، و دانييل هنري باجو و غيرهم " [18]، فروني إيتيامبل مثلا يقول : " ليست المقارنة ...إلا إحدى وسائل ما نسميه ...أدبا مقارنا "[19] ، ولعل من الأسئلة الكبرى التي غذت مشاريع التأمل في الأدب المقارن، كانت مرتبطة بشكل صريح أو ضمني بكيفية تحويل المقارنة إلى منهج للأدب المقارن.

لكن هناك من ينكر أن تكون المقارنة منهجا، بل يعتبرها " وسيلة إجرائية تكتسب قيمتها حين تدرج في نسق إجرائي شامل يرقى إلى مستوى المنهج، شأنها ما تقوم به في كل الحقول و الدراسات البحثية والمعرفية الأخرى، وإذا كانت هذه التخصصات تتخذ من المقارنة وسيلة، فإن كثير من أدبيات الأدب المقارن تجعل من المقارنة غاية، لكن دون أن تحدد للمقارنة صيغة اشتغال، أي دون أن تجعل منها منهجا قائما بذاته، وواعيا بحدود وأفق اشتغاله"[20].

من خلال تنوع التعاريف و تعدد المفاهيم حول طبيعة المقارنة يتضح الاختلاف المتباين في وسم فكرة المقارنة هل هي منهج يشتغل عليه جنس أدبي ما أم أداة مسعفة في التحليل أم هي غاية كل باحث أدبي في تفسير الظاهرة الأدبية وتمييز مكوناتها،ولعل سبب هذا الاختلاف مرده تعدد المشارف المعرفية والنظرية التى حملت على عاتقها مهمة التوصيف الأدبي.

لقد تجاوزت المقارنة في تصورها التقليدي فكرة البحث عن عناصر الاتصال و التقاطع و التوازي بين الآداب التي حصل بينها اتصال ما في لحظة تاريخية معينة ، وأصبحت تربط المقارنة بالبحث عن مظاهر الاختلاف وليس الوحدة ،"ونجد ذلك حاضرا حتى على مستوى الجمعيات الدولية للأدب المقارن ومن بينها" الجمعية البلجيكية للأدب العام و المقارن " التي نظمت مؤتمرا سنة 2008 حول موضوع(التوجهات الجديدة

للمقارنية)[21]، وكان من بين الإشكاليات التي اقترحتها الورقة التقديمية للمؤتمر هي :" هل مازالت المقارنة – من حيث هي أداة /مفهوم – تمثل المرتكز الإبستمولوجي الضروري للأدب المقارن ؟ما الذي بقي من المقارنة في ضوء المقاربات القائمة على رصد مظاهر الاختلاف ؟ هل مازالت المقارنات الثنائية تمثل المكون الضروري لكل مقارنة؟"[22].

وبديهي من خلال عقد مؤتمرات حول أهمية المقارنة و الإشكالات التي تطرحها في ظل تنامي ثقافة و فلسفة الاختلاف ليؤكد فعلا وجود أزمة حقيقية في الأدب المقارن ، لأنها لا تشتغل بوصفها أداة استكشاف بريء و محايد ، و ذلك بسبب كونها تقع أبديا عند تلك النقطة التي يلتقي فيها الحد ونقيضه : الذات و الآخر ، الخصوصي و العام ، الأصلي و المترجم . "إن المقارنة التي كانت تبحث عن الصلات و التأثيرات المتبادلة بين الآداب أصبحت اليوم تستند لإبدال جديد هو رصد مظاهر الاختلاف و تبئير النسبية الثقافية . لكن الذي حدث ليس استبعاد المقارنة من الأدب المقارن ،بل إعادة توظيفها في اتجاه جديد يتماشى نسقيا مع التحولات التي عرفها الفكر الغربي الحديث الذي أصبح منشغلا بـ"مدح الاختلاف " [23] ، بتعبير دانييل هنري باجو ... و لا شك أن المقارنة حينما تتوسع لتشمل أدبين أو أكثر تجد نفسها أمام إغرائين : إما تبئير التشابه أو تبئير الاختلاف ، لكن التحولات التي عرفها الفكر الحديث تتسرب إلى الأدب المقارن ، و هي تحولات تعلي من قيمة الاختلاف ، وتنصبه بوصفه قيمة إنسانية عليا . لذلك يجد المقارنيون أنفسهم يشغلون المقارنة و هم واعون بأنها تستدعي في الذهن حالات : تشابه/ اختلاف لـ : كاتبين / موضوعين / صفحتين / لغتين ..."[24].

وإذا نظرنا إلى هذا التوجه في الأدب المقارن الذي ينظر إلى علاقات التأثر و التأثير وإلى الاختلاف و التشابه بين أدبين أو كاتبين نجده يختصر على المدرسة الفرنسية في حين نجد المدرسة الأمريكية تركز على النقد في عملية المقارنة، الأمر الذي يحتم على الباحث في مفهوم المقارنة أن يحدد الاتجاه الذي يشتغل عليه.

و لعل طبيعة الموقع الذي يمارس فيه الأدب المقارن وظيفته المعرفية و الإنسانية ، ما مكن المقارنة بأن لا تمارس كامل طاقتها الكشفية إلا حين تخرج من حيز الأدب المفرد إلى أحواز الأدب المتعدد أو الآداب بصيغة التقاطع و التداخل و الجمع، فعرف الأدب المقارن تحولات و انفتاحات على قضايا عالمية؛ مثل أسئلة المغايرة الثقافية، وجدلية الخاص والعام، والمحلي و الكوني، الكشف عن خصوصية الظاهرة الأدبية على مستوى متناصاتها، الدراسات ما بعد الكولونيالية، والدراسات الثقافية، والنقد الثقافي المقارن[25]

رؤية ريمون طحان للتصور الكوزموبوليتي المنشود :

في كتاب (وصية المقارن : البيان الكوزموبوليتي) لريمون طحان يقدم تصورا لهذا التوجه الجديد حول المواطنة الكونية حيث يطلق صرخة عالية و يوجه نداء حارا ، يعرض فيه رؤيته لحل مناسب و فعال ، ويتوسم فيه سمات حل منصف و صيغة مثلى ، ترضي الكل ، و يتوافق الجميع على أساسياتها ، و يعيد بهذا الخصوص ، الأمور إلى نصابها ، في نقاط أربعة ، نلخص محتوياتها ، على الشكل التالي :

1. اختيار طريق الإيمان الذي يعمر القلوب و الالتزام بالعلمنة : وفي هذا العنصر يحاول فيه أن يكشف بعض جوانب الدين الحق في قوله : "أن نوضح

روائعه في العقل و مواقعه في النفس ، و أن نبين سمو ما يحتوي من مثل ومبادئ و سلوك و أخلاق . و لإزالة كل التباس ، أن الدين أو بالأحرى الإيمان الذي نعترف به يخضع لحركة ذاتية و داخلية نابعة من الأعماق ، و لخبرة يومية معاشة ، تصبو إلى التخلص من كل ما يقيد و يكبل ، و تسعى إلى التحرر من كل نفعية دنيوية . و ننادي في تعاملنا مع المجتمع ، بصيغة العلمنة التي لا تؤدي في حال اعتمادها ، إلى قيام صيغة إسلامية صرفة أو مسيحية صرفة ، أو إلى دعم شريعة معينة ... و نؤمن بتنوعية ايمانية ، عقائدية تواقة إلى التسامح ، و بعلمنة معقولة ، بعيدة عن الإسلام و عن النصرانية في آن واحد ، فيها غنى النوعية و سمو التقدمية "[26].

2. المناداة بمواطنية كونية و بإنسانية مثالية تصبو إلى تحقيق قيم عالمية خالدة :يشير و يوضح طبيعة هذا النداء في قوله " نقوم فيه بنقد السياسية ، وندعو فيه إلى تجاوز الحدود ، و تفجير الحواجز ، وتحرير الفكر من ميثات الأرض و القومية العرقية ، و الابتعاد عن النزوات الشوفينية و التزمت المكاني البيئي ، وذلك بالتملص من ربقة قيود المجتمع المصطنعة ، و بالدعوة إلى إخلاء سبيل حرية الفرد ، و إلى العمل على تحصين النفس مما يعد وراثيا وصونها من التقاليد البليدة ، و على حماية الذات من النزوات ، و ترسخ الروح الناقدة ، والتهكم الواعي الذي يسخر من الضجة الفارغة التي يثيرها البعض ، حول مسائل الدم و العرق و الاثنيات و الجذور و الهويات والجنسيات . وما غاية نقد الفكر المسيس و المنطق المدجن إلا تمكين جميع الفئات الاجتماعية من أن تحقق ذاتها ، بالرغم من تنوع ثقافاتها و اختلاف عناصرها ، فالتنوعية هي مثال في الانسجام و التناغم ، عندما يتعاون الجميع ،في سبيل كل ما تفرضه سياسة ، تتجاوز الفروقات الداخلية و الميزات الطفيفة ، و تسعى إلى تحقيق المصلحة العامة و إلى الإفادة من جميع منابع المعرفة و مصادر الازدهار و طاقات النماء . إن المواطنية الكونية والإنسانية المثالية تحرران من القيود و تعتقان من العبودية و تصونان كرامة الناس ، و توجدان صيغا تراعي حقوق الأقليات الوطنية و الجماعات الاثنية" [27].

3. إشباع الفرد بمفاهيم وقواعد تدخل في صميم الحضارة العالمية من قبيل الثقافات المحلية والحريات الشخصية ،و في ذلك يقول :" نعلم أن مادة الصراع الحديث هي الإنسان بالذات ، و لا شيء غير الإنسان . و بالقضاء على الأمية الحضارية ، نعمل جاهدين على إشباع الفرد بالمفاهيم و القواعد و الأساليب التي تدخل الإنسانية في عالمية الحضارة . و لا تعتبر الثقافات المحلية إلا جداول و روافد تصب في البحار و في أوقيانوس الحضارة العالمية التي تخلط التيارات كافة بعضها بالبعض الآخر. و الحضارة العالمية هي الوحيدة التي تكفل للفرد الحرية و للمجتمعات الرفاهية"[28].

4. الانفتاح على الفنون و العلوم الحديثة الرائعة ، و الإقبال على صناعات الكتابة العالمية البليغة : " نكشف فيه مفاهيم الحداثة و مضامينها ، ونفسح فيه المجال ، لكي تتفتق قدرات الإنسان الكامنة ، التي تتوسل ، لتحقيق الذات ، الثقافات الغربية و اللغات البعيدة . و عندما نتملص من ربقة اللغة

المحلية ومن نير التراث ، نقاوم الانتماء الثقافي الضيق ، ونخرج الصناع من قمقم جماعته ، ونتيح له التنقل في أرجاء الثقافة الواسعة ، بالغربة و الفراق و الهجرة و الرحيل . ومن المعلوم أن الفنون الرفيعة و الصناعات الجميلة أرقى ما وجده عقل البشر ، وهي التي تجعل الفرد يتحسس ما يكمن فيه من خاص و فردي و أصيل ، و أن مضايقة أرباب العلوم و أصحاب الفنون و أهل القرطاس و القلم عمل إجرامي ، يتولى أمره مغتالون محترفون ، و سفاكو دماء ، خرجوا على الإنسانية و هتكوا قيمها الخالدة "[29].

و منه فالمواطنة الكونية نزعة تهدف إلى إلغاء كل الفوارق و الحدود بين البشر و تكوين دولة عالمية تحفظ حقوق الإنسان و تحرره من النزعات الإقليمية و فكرة الإنسان الأعلى و الأمثل فكل الناس سواسية في المدينة العالمية ، فالمواطن العالمي يتجاوز الانتماء المحلي إلى مجتمع عالمي يدعو بفكرته هذه إلى نبذ المشاعر القومية و الوطنية باسم وحدة الجنس البشري الذي يعيش تحت راية واحدة و قانون واحد.

ومن خلال هذا البعد الإنساني المشترك و الإنضواء تحت مظلة واحدة تسع الجميع دون أي تمييز وامتهان لكرامة الإنسان " فإن الطروحات التي جاءت بها الكوزموبوليتية تحثنا على تنمية قدراتنا الكامنة ، و على انتزاع هوية تزخر بالحياة ، و تحول دون تجذرنا و دون انسياقنا وراء قطيع جماعتنا ، و هي تقوي فينا العزم على مقاومة القديم ، و علة الاحتراز من تأثير المكان و مفعول الزمان"[30].

نتائج البحث:

1. المواطنة الكونية نزعة تهدف إلى إلغاء كل الفوارق و الحدود بين البشر و تكوين دولة عالمية تحفظ حقوق الإنسان و تحرره من النزعات الإقليمية.
2. تعود أصول مفهوم الكوزموبوليتية إلى الإغريق ، إذ " يعتبر ديوجين سينوب الذي ينتمي للفلسفة الرواقية أول من حدد هذا المفهوم في القرن الرابع قبل الميلاد.
3. من أهم المبادئ التي انطلقت منها الفلسفة الرواقية من أجل تحقيق المواطنة العالمية ؛ مبدأ القانون الطبيعي الذي يحكم سائر الكائنات و العالم ، ومبدأ الحرية و المساواة التي تكون بين أفراد المدينة العالمية.
4. الأدب المقارن حين تبنى النزعة الوضعية الكانطية وجد نفسه متأثرا في الآن نفسه بذلك النفس الكوزموبوليتي الذي حرك فلسفة كانط وحدد ملامح نظرته للتاريخ الكوني.
5. تعد الأبحاث و الدراسات الألمانية المرتبطة بتطور الأجناس الأدبية في رسم لوحة عامة شاملة، والتي ذكر فيها تواريخ أكثر الآداب العالمية المعروفة، سباقة في بث روح العالمية الكوزموبوليتية.
6. تقوم النزعة الكوزموبوليتية في الأدب المقارن على المرتكزات التالية: المرتكز الإنساني ،ومرتكز الجمهورية العالمية للأدب ، ومرتكز المقارنة كقيمة إنسانية.
7. قدم ريمون طحان تصورا لهذا التوجه الجديد حول المواطنة الكونية يقوم على العناصر التالية: اختيار طريق الإيمان الذي يعمر القلوب و الالتزام بالعلمنة، المناداة بمواطنية

كونية و بإنسانية مثالية تصبو إلى تحقيق قيم عالمية خالدة، إشباع الفرد بمفاهيم وقواعد تدخل في صميم الحضارة العالمية من قبيل الثقافات المحلية والحريات الشخصية ،الانفتاح على الفنون و العلوم الحديثة الرائعة ، و الإقبال على صناعات الكتابة العالمية البليغة.

قائمة المصادر والمراجع:

1. إيمنويل كانط : مشروع للسلام الدائم ، تر عثمان أمين ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ،ط1، 1952.
2. باسكال كازانوفا : الجمهورية العالمية للآداب ، تر أمل الصبان المجلس الأعلى للثقافة ،القاهرة ،الطبعة الأولى ، 2002.
3. توفيق الطويل: فلسفة الأخلاق نشأتها و تطورها، دار الثقافة، القاهرة، ط4، دت .
4. دانييل هنري باجو : الأدب العام و المقارن ،تر غسان السيد ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، 1997. -
5. -ريمون طحان: الأدب المقارن و الأدب العام،دار الكتاب اللبناني، بيروت،ط2، 1983.
6. ريمون طحان (بالاشتراك مع دنيز بيطار طحان) ، وصية المقارن : البيان الكوزموبوليتي ،دار الكتاب اللبناني ، بيروت ،الطبعة الأولى ،1987،.
7. سعيد أراق بن محمد ، الأدب المقارن في ضوء التحليل النقدي للخطاب دار أسامة للنشر و التوزيع، الأردن، ط1، 2015،
8. - فريال حسن خليفة: الدين و السلام عند كانط ، مصر العربية للنشر و التوزيع ، القاهرة،ط 1،2001.

قائمة الهوامش:

[1] ريمون طحان (بالاشتراك مع دنيز بيطار طحان) ، وصية المقارن : البيان الكوزموبوليتي ،دار الكتاب اللبناني ، بيروت ،الطبعة الأولى ،1987،ص 14.

[2] سعيد أراق بن محمد ، الأدب المقارن في ضوء التحليل النقدي للخطاب ،دار أسامة للنشر و التوزيع، الأردن، ط1، 2015، ،ص 153.

[3] ايمنويل كانط : مشروع للسلام الدائم ، تر عثمان أمين ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ،ط1، 1952،ص13-14.

[4] فريال حسن خليفة: الدين و السلام عند كانط ، مصر العربية للنشر و التوزيع ، القاهرة،ط1،2001،ص147.

[5] توفيق الطويل: فلسفة الأخلاق نشأتها و تطورها، دار الثقافة، القاهرة، ط4، دت،،ص 433.

[6] ريمون طحان: الأدب المقارن و الأدب العام،دار الكتاب اللبناني، بيروت،ط2، 1983،ص109.

[7] سعيد أراق بن محمد ، الأدب المقارن في ضوء التحليل النقدي للخطاب ،ص 154.

[8] سعيد أراق بن محمد: الأدب المقارن في ضوء التحليل النقدي للخطاب ،ص 156.

[9] سعيد أراق بن محمد : الأدب المقارن في ضوء التحليل النقدي للخطاب ،ص148-149.

[10] Venant cauchy ,le nouvel humanisme et l'auonomie de la philosophie dans une perspective chretienne,p131-132 نقلا عن سعيد أراق بن محمد : الأدب المقارن في ضوء التحليل النقدي للخطاب، ص 150.

[11] باسكال كزانوفا : ، الجمهورية العالمية للآداب ص 11.

[12] باسكال كزانوفا : الجمهورية العالمية للآداب ،ص 11.

[13] باسكال كزانوفا : المرجع نفسه، ،ص12.
[14] باسكال كزانوفا : الجمهورية العالمية للآداب ،ص12.
[15] باسكال كزانوفا : الجمهورية العالمية للآداب ، ص13.
[16] سعيد أراق بن محمد: الأدب المقارن في ضوء التحليل النقدي للخطاب ، ص61.
[17] دانييل هنري باجو: الأدب العام و المقارن ،ترغسان السيد ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، 1997، ص 22.
[18] سعيد أراق محمد ، الأدب المقارن في ضوء التحليل النقدي للخطاب ، ص 160.
[19] René Gallimard , les essais cix . Nrf .paris / 1963.p73., Etiemble:, compariaison nest pas raison نقلا عن سعيد أراق بن محمد : الأدب المقارن في ضوء التحليل النقدي للخطاب، ص 160.
[20] سعيد أراق بن محمد: الأدب المقارن في ضوء التحليل النقدي للخطاب ، ،ص63.
[21] سعيد أراق بن محمد ، الأدب المقارن في ضوء التحليل النقدي للخطاب ، 160-161.
[22] سعيد أراق بن محمد : المرجع نفسه، ،ص 161.
[23] دانييل هنري باجو: الأدب العام و المقارن ، ص 28.
[24] سعيد أراق بن محمد : المرجع السابق،ص 161.
[25] سعيد أراق بن محمد : المرجع السابق،ص66.
[26] ريمون طحان (بالاشتراك مع دنيز بيطار طحان) ، وصية المقارن : البيان الكوزموبوليتي ،دار الكتاب اللبناني ، بيروت ،الطبعة الأولى ،1987،ص 134-135.
[27] ريمون طحان : وصية المقارن : البيان الكوزموبوليتي ، ص 135-136.
[28] ريمون طحان : وصية المقارن : البيان الكوزموبوليتي ، ص 136.
[29] ريمون طحان : المرجع نفسه ، ص 137.
[30] ريمون طحان : وصية المقارن : البيان الكوزموبوليتي ، ص 137.